معنى حملة "تمرد"

حملة «تمرد» ليست مجرد استمارة توقيع لسحب الثقة من «الرئيس» محمد مرسى، بل هى حملة تخصيب للشارع بنداء المقاومة من جديد، وترك لليأس باعتباره خيانة، واستعادة للثقة فى النصر الأكيد للشعب المصرى وثورته المغدورة. نعم، «تمرد» هى الكلمة الملهمة من جديد، وليست مصادفة أن شباب «كفاية» القياديين هم الذين أطلقوها، فقبل سنوات، كان إطلاق «كفاية» ذاتها هو كلمة الخلق، كانت قيادات من جيل الوسط السياسى قد أطلقت «كفاية» بعد حملة توقيعات أولية، وكان إلهام «كفاية» فى اختصار كلمتها ورنينها السحرى.

وأطلقت «كفاية» مبادرات فعل حية فى الشارع، رفعت سقف المعارضة إلى السماء، وتمردت على صور من المعارضة الجزئية البليدة والمحاصرة بمخاوفها ومصالحها، وآمنت بأن الفعل أصدق أنباء من البيانات والكتب، وأن الفعل هو الكتاب والنظرية وسورة الفاتحة وكلمة الخلق، وسرعان ما تناسلت كفاية فى ضمائر المصريين، وصعدت بفعل المبادرين بين نهايات ٢٠٠٤ ونهايات ٢٠٠٥، ثم بدا - بعد عامها الأول - أن اليأس قد زحف إلى قلوب، وبالذات بعد أن اغتصب مبارك رئاسته الخامسة، لكن ما بدا فى صورة اليأس كان محض خداع بصر، فقد اثمرت البذرة فى حقل التمرد على نظام فاسد، وبدا الصعود الأول لكفاية كأنه عام من الغضب السياسى، وحين تراجعت حركة الغضب السياسى على السطح، كانت صيحة «كفاية» تزحف إلى مكان آخر، وصعد الغضب الاجتماعى مزلزلا مع إضراب عمال المحلة الأول فى نهايات عام ٢٠٠٦، ثم التقى الغضبان فى انتفاضة ٦ أبريل ٢٠٠٨، وقتها قلت - وبالحرف - إن ٦

أبريل ٢٠٠٨ هو «البروفة جنرال» أو «البروفة الأخيرة» للثورة المصرية، وهو ما أثبتت الأيام صحته تماما، وجرى خلع مبارك كثمرة لتمرد «كفاية» الأب الروحى والأم الروحية للثورة المصرية المتصلة فصولها إلى الآن، وتبدو فيها دراما حملة «تمرد» كأنها التأسيس الثانى لحركة «كفاية».

وصحيح أن التاريخ لا يكرر نفسه بالحرف، وإن ظل الدرس ذاته ملهما، فنحن بصدد الثورة ذاتها فى التاريخ نفسه، وقد حوصرت الثورة، وجرى الغدر بها، ووضع النظام الفاسد نفسه عمامة على رأسه، وبعد أن جرى سجن مبارك، خرج مرسى من السجن ليواصل غباوة نظام مبارك ذاتها، وليكرر ذات اختياراته التى صنعت المأساة المفجرة للثورة، ولكن فى ظروف مختلفة بتفاصيلها، فقد كان للنظام رأس ـ عائلة مبارك ـ بلا قاعدة اجتماعية منظورة، ثم وضع النظام على رأسه عائلة جديدة هى قيادة الإخوان، وبدت العائلة الجديدة فى صحة أوفر، فلها قاعدة اجتماعية تكونت وتوسعت عبر أربعين سنة من الركود والانحطاط التاريخى للبلد، والفرق بين الرأسين هو ما يفسر اختلاف صورة المعركة، فقد هزمت الثورة رأس النظام الأولى - عائلة مبارك - بالضربة القاضية، والسبب: افتقادها التام لقاعدة اجتماعية تسند، بينما تبدو المعركة مع الرأس الثانية ـ عائلة الإخوان ـ فى صورة مباراة بالنقاط، وفى كل جولة، يجرى تجريف مضاف للقاعدة الاجتماعية التى تسند الرأس الإخوانى، فالتنظيم الإخوانى زاد قوة ومالًا وعتادًا، تماما كما كان التنظيم الأمنى لمبارك من وزن مليونى مخيف، لكن تضخم التنظيم الإخوانى يجرى فى ذات الوقت الذى تضعف فيه شعبيته وجاذبيته، وفى الوقت الذى تتآكل فيه القاعدة الاجتماعية للتنظيم كل يوم، ويجرى التجريف لدوائر التعاطف الشعبى المتقادمة، وإلى حد أن التنظيم المتضخم يبدو الآن عاريًا، ويأكل من لحمه الحى، وهو ما بدت أماراته ظاهرة فى الضعف المتزايد للحشود الإخوانية، وفى الانفضاض المتزايد لجماعات الحلفاء والأصدقاء الطبيعيين، وفى الفرار الجماعى من الإخوان واستشاريات الرئيس،

وعلى طريقة فرار السليم من الأجرب، وفى التخوف الغريزى للإخوان من نهاية قريبة، وفى سلوك النهم الإخوانى للاستيلاء السريع على المناصب ومفاتيح المال والسلطة، وكأنهم يحسون غريزيًا أنه عشاؤهم الأخير، وفى المحصلة، فإن ميزة جماعة الإخوان على جماعة مبارك تتلاشى بسرعة، وبفضل التغير السريع فى وعى الكتلة احية من ملايين المصريين، وإلى حد تبدو معه عملية الانهاك بادية بآثارها على وجه الإخوان المجزوع، وعلى وجه رجلهم المنتدب إلى قصر الرئاسة محمد مرسى بالذات، فقد أخذت عملية تآكل القاعدة الاجتماعية لجماعة مبارك وقتا تطاول إلى سنوات، بينما عملية تآكل القاعدة الاجتماعية للجماعة الإخوانية تمضى مسرعة فى شهور لا سنوات، وقد توقع كاتب السطور - فى كتاب «الأيام الأخيرة» عام ٢٠٠٨ - أن يستمر حكم الإخوان لخمس سنوات بعد خلع مبارك، ويبدو التقدير القديم مبالغًا فيه الآن، ولا تبدو من مقدرة لجماعة الإخوان على البقاء المستقر فى السلطة كل هذه السنوات، بل ربما يجرى اختصارها - بأحكام التاريخ - إلى نصف المدة المقدرة، وربما أقل، فجماعة الإخوان تتجه بسرعة إلى ذات النهاية التى لقيتها جماعة مبارك، كان مبارك فى أيامه الأخيرة قد تحول إلى ما يشبه وضع النبى سليمان حين مات وهو يتكئ على عصاه، ولم يلحظ أحد أنه مات إلا حين نخر النمل العصا، وهو المصير ذاته التى تتجه إليه قيادة الإخوان، كان «النمل المقدس» قد بدأ زحفه من ثغرة «كفاية»، ثم ازداد الزحف مع تناسل «كفاية» فى أخواتها من حركات التغيير السياسى والاجتماعى، وإن بدا فى لحظات - كانت سنوات - أن اليأس قد حل بطوابير زحف النمل، وهو ما بدا أيضًا فى حركة الشارع المقاوم لحكم مرسى والإخوان، فقد بدا للحظات - صارت شهورًا هذه المرة - أن زحف «النمل المقدس» يتباطأ، وربما يركد، ثم بدت حملة «تمرد» - بنت كفاية - كاستئناف عفى لمقاومة الشارع الغاضب، وبطريقة بدت سلمية وديمقراطية وراديكالية تمامًا، فمصر كانت ولا تزال قادرة على صناعة ألف ثورة، وآبار الغضب الاجتماعى والسياسى مليئة

للحافة، وكل ما يلزم فعل الثورة هو إعادة تكوين الكتلة الحرجة، والتى قدرتها منذ عام ٢٠٠٥ بحوالى المائة ألف، وثبتت صحة التقدير فى وقائع الموجة الأولى للثورة بين يومى ٢٥ يناير ٢٠١١ و ١١ فبراير من العام نفسه، فدور الكتلة الحرجة هو رفع الغطاء عن آبار الغضب المخزون، بعدها تتدفق الملايين من آبار بلا قرار، وهو ما يصح أن تعيه «الكتلة الحرجة» التى تتكون الآن ككرة من نار، وأن تواصل طريقها بلا يأس ولا كلل، وأن تثق بالنصر الأكيد، فإرادة الشعب من إرادة الله، وقد بدا التجاوب المليونى التلقائى مع حركة «تمرد» مبشرًا بقرب ساعة النصر.

نعم، مجرد التوقيع على استمارة سحب الثقة من مرسى، هو انضمام بالتأييد للثورة الجديدة، والفكرة غاية فى البساطة والجرأة والإقدام، تماما كما كانت فكرة «كفاية» وقت ظهورها الأول، وللفكرة جذور عميقة فى تربة الوطنية المصرية، وتذكروا حملة توكيلات «الوفد» التى سبقت ومهدت لثورة ١٩١٩، وحملة توقيعات بمئات الآلاف سبقت خلع مبارك، والتى تتناسل الآن فى حملة توقيعات بالملايين لإسقاط مرسى وحكم الإخوان.

"صوت الأمة" فى ٢٠ من مايو ٢٠١٣